إســـعاف النشاشيبي

للأستاذ أحمد لطفي الســـيد

اختار الله لجواره في الأسبوع الماضي الكاتب الشهير إسعاف النشاشيبي زعيم الأسرة المعروفة في فلسطين منذ القرن التاسع الهجري إلى اليوم .

ارتقى — رحمه الله — إلى أعظم المناصب الحكومية في عهد الحكومتين العثمانية والحاضرة — بجده واجتهاده ، فكان المفتش الأول للغة العربية في فلسطين — نظم المدارس وأصلح التعليم في هـذا القطر الشقيق — ونشر علم العربية عالياً تشهد بذلك مؤلفاته ومقالاته الذائعة الصيت في العالم العربي — وقد كان السيد إسعاف بك شديد الحنين لوطن أسرته الأول مصر — فكان يزورها كلما سنحت الفرصة — وهو فوق ذلك يؤلف فيها الكتب — ويحيي علماءها وشعراءها وزعماءها — ويتعرف إلى أحيائها وأمواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا — وحادثة وقوفه بين يدي المغفور له سعد باشا معروفة مشهورة .

ونحن بهذه المناسبة نكشف لقراء الرسالة الغراء عن أصل هذه الأسرة العربية الكريمة حتى تقر عين الصديق الراحل بكلمة وفاء صغيرة من أحد أبنائه المعترفين بفضله ... يتصل أول هذه الأسرة بالشيخ المعتقد أحمد بن رجب النشاشيبي — سمي بذلك لأن أجداده كانوا يحترفون صناعة النشاب — وكان الشيخ أحمد المذكور من رجال السلطان الملك الظاهر جقمق — كان خازندار الخاص في أيام إمارته الأولى في فجر القرن التاسع الهجري — وتوفي الشيخ أحمد المذكور على عهد المؤرخ الشهير ابن تغري بردي صاحب كتاب النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة وقد وصفه بقوله : (الشيخ المعتقد أحمد بن النشاشيبي كان خيراً يحب العلماء الصالحين) وترك ابنه الأمير ناصر الدين محمد وهو غرة هذا البيت ووابسطة هذا العقد وطراز هذه الحلية

الذي هو تحته ، فجاءه الوحي بما هموا به . ثم يخرج أبو رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي بعد أشهر إلى « غطفان » ومن حولهم من مشركي العرب ، يغريهم بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ...

ولا تزال تمضي من حدث إلى حدث ، ومن غدر إلى غدر ، ومن نفاق إلى نفاق ، واليهود رأس ذلك كله ، والعاملون عليه ، والموغلون فيه ، إلى أن تنتهي إلى خبر اليهودية التي وضعت السم في الشاة ودعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر ، فأكل من شاتها ثم نبئ أنها مسمومة فلفظها .

فما معنى هذا كله ؟ معناه أن اليهود لم يفتر لهم لسان ولا يد ولا غش ولا غدر ولا خديعة ولا ضغن منذ ظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه الشحناء لم تكن عن إساءة لحقتهم من الذين آمنوا بل كانت عصبية يهودية محضاً ، وخليقة مركبة في طباع هـذا الجنس من البشر ، وأن النفاق كان طرفاً من دسائسهم ومتنفساً لأضغانهم على أهل هذا الدين ، وأن الله قد وصفهم وصف الحق إذ يقول تبارك أسماؤه: « لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون . لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »

وهذه الصفة التي وصفهم الله تعالى بها ، لم تنقطع ولن تنقطع ما بقي على الأرض مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وسترى في الكلمة الآتية كيف استطاع اليهود أن يفسدوا على المسلمين أموراً كثيرة ، وأن يثيروا فتنة كادت تذهب بالإسلام كله لولا أن الله قد وعد عباده أن يظهر هـذا الدين كله ولو كره الكافرون .

محمود محمد شاكر

ولد فى مصر سنة ٨٢١ هـ وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم فى صغره وجوده على أشهر علماء عصره ثم اتصل كأبيه بخدمة الملك الظاهر جقمق . وفى سنة ٨٧٥ اختاره الملك الأشرف قايتباى لوظيفة ناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل) فدام فى هذه الوظيفة ما يقرب من الثمانية عشرة عاماً ، كانت كلها خيراً وبركة على القدس والخليل وأهلهما . وقد فصل العليمى فى كتابه تاريخ القدس وأخليل حكم هـذا الأمير لتلك البلاد فقال كانت أيامه كلها مواسم ... وناهيك بهذه الشهادة من شاهد عيان .

وحتى يكون القارىء على بينة من سر حنين المرحوم إسعاف بك لوطن أسرته الأول مصر نفصل له قليلا من أخبار الأمير ناصر الدين فى القدس وكيف استقرت فيها هذه الأسرة المصرية الكريمة منذ خمسة قرون إلى الآن ... قال العليمى فى حوادث ٨٧٣ هـ كثرت الفتن فى القدس بين نائب السلطنة (حاكم القدس) دمرداش وناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل) برد بك التاجى واشتد الخلاف بينهما وكثر القيل والقال فأدى الحال إلى انفصال الأخير عن نظر الحرمين الشريفين وعين السلطان قايتباى الأمير ناصر الدين بن النشاشيبى أحد الخازندارية بالخدمة الشريفة (أحد رجال الديوان العالى كما هو متعارف اليوم) للكشف عن أوقاف الحرمين الشريفين بالقدس والخليل وتحرير أمرها وإصلاح ما فسد من نظامها فحضر إلى القدس وأصلح ما فسد من أيام برد بك التاجى وعمر المسجد الأقصى وصرف المعاليم (المرتبات) واستبشر الناس بالخير وعد ذلك من بركة الأمير ناصر الدين ثم توجه إلى مصر فى آخر سنة ٨٧٤ هـ وفى سنة ٨٧٥ استقر الأمير المذكور فى نظر الحرمين الشريفين ودخل إلى القدس فى يوم مشهود وشرع فى عمارة الأوقاف بهمة وشهامة وحصل للاراضى المقدسة الجمال بوجوده وكان يكثر من مجالسة العلماء والفقهاء ويحسن إليهم بالبشر والقبول . وفى سنة ٨٧٧ هـ شرع فى عمارة الصخرة الشريفة وانتهى العمل فيها فى سنة ٨٧٨ هـ وفى هذه السنة خلع عليه السلطان قايتباى وعلى القاضى شهاب الدين بن عبيسه ووهبهما ألف دينار وحضر الاثنان إلى القدس وعليهما خلعة السلطان فكان يوماً مشهوداً ...

وفى سنة ٨٩٢ هـ اشتد البلاء بالقدس والخليل وساءت سيرة نائب السلطان خضر بك وكان يناصره قاضى المالكية شرف الدين بن يحيى المغربى فكثرت الشكاوى فى حقهما فعزل الأمير ناصر الدين القاضى بناء على أمر جاءه من القاهرة فلما كانت سنة ٨٩٣ هـ توجه خضر بك نائب السلطنة والأمير ناصر الدين ناظر الحرمين الشريفين إلى القاهرة ومثل كلاهما بين يدى السلطان فعزز السلطان خضر بك وأمر بعزله والتمس الأمير ناصر الدين من السلطان أعفاءه من الخدمة فتوقف السلطان ولكن الأمير ناصر الدين ألح فى طلب الاستعفاء فأعفاه السلطان من الخدمة كارها لنزاهته وعفته واستقامته .

قال الشيخ العليمى ودخلت سنة ٨٩٢ والوظيفتان شاغرتان النيابة والنظر قال ثم عين السلطان دقاق فى نظر الحرمين فكان بعكس سلفه ظالما فاجراً .

قال السخاوى فى كتابه الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع كان الأمير ناصر الدين بن النشاشيبى من أهل الخير والصلاح حفظ القرآن الكريم وهو صغير وجوده على ابن كوزلبنا والزين طاهر وأخرين وبعد أن ذكر خدماته فى القدس والخليل قال وصرفه السلطان قايتباى بدقاق . والعليمى يؤكد أن النشاشيبى هو الذى استعفى من تلقاء نفسه وأن السلطان ألح عليه فى البقاء فى نظر الحرمين فرفض ألخ وصاحب الدار أدرى .

ولم ينس الأمير ناصر الدين تلك البلاد التى صرف فيها زهرة العمر فرجع إلى القدس وتائل الدور والقصور والحقول والبساتين وانتهت الأسرة كلها بالانتقال من مصر إليها منذ القرن التاسع إلى الآن ...

* * *

وبعد فهذه لمة صغيرة عن أصل هذه الأسرة الشهير والكاتب النحرير والحجة الثبت واللغوى الضليع عظيم القدس والخليل البلد المعلوم وموطن القبر الموهوم الذى من أجله تقاتل الأخوان كأنهما وحشان قرونا وأجيالا حتى اصطبغت الأراضى المقدسة بالدماء فشربتها شرب الهيم ولم يغن فيها دعاء ابراهيم وهى اليوم كما كانت بالأمس وا أسفا والفرق فى الإسم فقط فتلك حروب صليبية وهذه حروب صهيونية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

احمد لطفى السيد